القاسية الى هناك، إمّا عبيداً اصطيدوا اصطياداً، ونقلوا قسراً، وامّا عمّالاً هربوا من الجوع في بلدانهم؛ والقليل هاجر في ظروف شخصية حسنة.

يستطيع المرء ان يجد في تاريخ العالم حالات لا حصر لها من التشتّت. واذا كان بعض الحالات، مثل التشتت الشمال ـ افريقي في فرنسا، أو اللبناني في الاميركتين، يحمل معنى موضوعياً، لأنه جرى في أزمنة حديثة، فان الدياسبورا اليهودية لا تحمل أي معنى موضوعي، لا لأن السبي البابلي لم يقع فعلاً بالشكل المروي، أو بغيره، وانما لأن الربط التاريخي ـ العنصري بين الطوائف اليهودية في كل زمان ومكان هو أسطوري ووهمي. فلا يوجد أي «دياسبورا» لليهود البولونيين، أو الروس، أو اليمنيين، أو السوريين. ومن الضروري، هنا، التشديد على أسطورية المعنى الاساسي المقصود بـ «الدياسبورا»، وهو الاغتراب عن «ارض الميعاد» و«هيكل سليمان»، الخ. لأنه بهذا المعنى لا حياة للمسلمين من دون مكة، ولا حياة للمسيحيين من دون القدس. كيف يعيش هؤلاء المساكين في اندونيسيا والصين والهند، وفي أوروبا والاميركتين؟ هل يجب ان يتكدّس الجميع في الحجاز، وفي فلسطين؟!

اضافة الى ذلك، تسبّبت الحركة الصهيونية لليهود بتشتّت معاكس من بلدانهم. لقد عانى المهاجرون اليهود الى فلسطين من عذاب أليم في معسكرات التجميع في أوروبا، وفي عمليات الانتقال الصعبة، التي ترافقت بالرشوات، وبالمؤامرات على فقراء اليهود، وفي مسلسل الاستيطان في فلسطين، حيث تغيّرت طبيعة أعمال الناس؛ فيمكن ان يجد المرء ممثلة ناجحة تحوّلت الى وظيفة حلب الأبقار في احد الكيبوتسات.

الأهمّ من ذلك هو ان المراكز الاستعمارية، الاوروبية في البداية، ثمّ الاميركية فيما بعد، هي التي حوّلت الحنين الديني البريء لدى المؤمنين اليهود للحج الى الأماكن المقدسة، الى حركة عنصرية استيطانية. لقد بدأت الفكرة في نقل اليهود الى فلسطين لدى نابليون الاول؛ ثمّ ورثت الفكرة انكلترا بهدف مثلّث، هو خلق مرتكز للتنافس في الشرق الاوسط مع فرنسا، وحراسة طريق الهند، وخلق طابور خامس في اوروبا الشرقية، الخ.

لكن اذا كانت الدياسبورا اليهودية تستند الى الخرافة، وأدّت الى تطوّرات واحداث مأساوية في الشرق الاوسط، وفي مناطق أخرى ما يزال العالم يعاني منها، وربما سيعاني طويلاً، فان التشتّت الفلسطيني هو واقع مؤلم حي، يعيشه أغلب الفلسطينيين في الداخل، والخارج، بكل حواسهم.

لقد أدّى الاحتلال الصهيوني لفلسطين، في العام ١٩٤٨، الى تهجير أكثر من مليون فلسطيني، توزّع أغلبهم على كل البلدان العربية. ومن بقوا تحت الاحتلال، حرموا من أغلب الحقوق، ويعيشون مواطنين من الدرجة الثانية: فالدولة «يهودية»، والآخرون غوييم (أي غرباء). دمِّرت القرى الفلسطينية، وبنيت على أنقاضها المستعمرات الصهيونية (السبي البابلي فعل أقل من ذلك بكثير).

في العام ١٩٦٧، تحدثت الصحف العديدة عن المجازر التي ارتكبت بالأسلحة الحديثة، التي لم يكن يملكها الملك البابلي نبوخذ نصّر، وعن موت الناس الجماعي في سيناء؛ الهجرة بالآلاف عبر نهر الاردن تنطوي على أعلى درجة من المأساوية.

الادبيات السياسية العربية الأولى، المتعلقة بالاحتلال الصهيوني لفلسطين، كانت تظهر فيها لهجتان: الاولى مؤلفة من الأنين ومناجاة الضمير، من اجل الانصاف والمساعدة على حل